بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس: 45 الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق

الدرس: تفسير القرآن الكريم المبحث: سورة لقمان

التاريخ:29\03\2022 م كتبه: عبدالله ضيف الستري البحراني

لقد استوفينا البحث في الجلسة الماضية في الآية الثانية والعشرين، ووصل الكلام إلى قوله تبارك تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (23) نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلى عَذابٍ غَلِيظٍ﴾

هاتان الآيتان مترابطتان مع بعضهما البعض، فبعد أن بين في الآية السابقة حكم ﴿مَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ لأنه يكون بتسليم وجهه إلى الله وبإيمانه به وبإحسانه وعمله الصالح يكون مستمسكاً بالعروة الوثقى، وهذا يكون عاقبته إلى الله تبارك وتعالى فيجزيه الجزاء الأوفى والأوفر.

في المقارنة يتعرض لطائفة أخرى من الناس، وهو الذي يعرض وجهه عن الله تبارك وتعالى، لكنه لم يتعرض لذلك على وجه الاستقلال، في الذي يسلم وجهه إلى الله تعرض له على نحو الاستقلال، الآية هكذا تقول: ﴿مَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌفَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى وَإِلَى اللَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾.

أما هنا ابتدأت الآية بقوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ﴾ يخاطب النبي الأعظم ﷺ وينهاه عن الحزن بلحاظ من كفر، وهذا التعبير النهي عن الحزن المخاطب به النبي الأعظم ﷺ له نماذج متعددة في القرآن الكريم، ففي سورة آل عمران: ﴿وَلا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللَّهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ﴾[1] وفي سورة المائدة: ﴿يا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قالُوا آمَنَّا بِأَفْواهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ ...﴾[2] وفي سورة

[1] آل عمران 176
[2] المائدة 41

يونس: ﴿وَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيم﴾[3] وفي سورة يس: ﴿فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَ ما يُعْلِنُون﴾[4].

هذا التعبير في القرآن الكريم تكرر موجهاً إلى النبي الأعظم ﷺ، وفيه عدة مداليل:

المدلول الأول: ما يدل على شفقة النبي الأعظم ﷺ وأن له قلباً عطوفاً شفافاً يحزن على كفر الكافر، ويتضايق لأجل ذلك، وهذا يدل على كماله ﷺ، وإلا كان لا يهمه ذلك.

فأراد الباري تبارك وتعالى أن يسليه عن ذلك، وقال: هؤلاء الذين كذبوا كلامك ورفضوا هدايتك سينكشف لهم عن قريب ويندمون على ذلك.

فهذه الآية التي نبحث عنها هكذا بدأت ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ﴾ وذلك ﴿إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُور﴾ وهذه المرحلة حتى ننبئهم بذلك، هي مرحلة قليلة في موازين رب العالمين، ولذا جاءت الآية التي بعدها وفصلت هذا الشيء وقالت: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً﴾ فإذا تكذيبهم هذا هو تكذيب مؤقت قليل.

المدلول الثاني: أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يهون أمر الكافرين على النبي ﷺ ومن ورائه المؤمنين، فلذا لم يذكرهم على نحو الاستقلال، وإنما ذكرهم في سياق التهوين على النبي ﷺ، أن هؤلاء أمرهم سهل، لا قيمة لهم ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ﴾ هؤلاء الذين لم يستمعوا إلى كلمات الرسول ﷺ ولم يهتدوا بهديه ﷺ لا قيمة لهم، لا قيمة لكفرهم، أيام معدودة ويرجعون إلينا ثم ﴿فَنُنَبِّئُهُمْ﴾ بكل ما كان يجول في خواطرهم؛ لأن ﴿اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُور﴾.

وهؤلاء إن تمتعوا في هذه الدار بكفرهم، فإنما يرجع ذلك لأننا أعطيناهم مهلة قليلة ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً﴾ ثم بينت الآية الأخرى ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلى عَذابٍ غَلِيظ﴾ استعمل ثم التي للتراخي؛ لأن بين تمتع الكافر في هذه الدنيا وبين عذاب جهنم يوجد فاصل البرزخ، فلذا عبر بـ ثم التي تدل على التراخي.

---

[3] يونس 65
[4] يس 76

ومن أجمل التعبيرات هذا التعبير ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ﴾ يعني هؤلاء على خلاف رغبتهم، يحاول الكافر أن يهرب من هذا الموقف، أن لا يساءل عن كفره، لكن لا مجال له للهرب ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلى عَذابٍ غَلِيظ﴾ وصف العذاب بصفة تدل على تجسمه؛ لأن الغلظة وصف مادي للأجسام، الأجسام والمواد تكون غليظة أو تكون رقيقة وشفافة، فهذا الكفر الذي تمتعوا به في دار الدنيا سوف يتجسد أمامهم بصورة عذاب في يوم القيامة.

فإذن هذه الطائفة الثانية لم تذكر بشكل واضح كطائفة مستقلة، وهذا يدل على عدم الاعتناء بهم، بخلاف الطائفة السابقة، ذكرت كطائفة مستقلة. هذه الطائفة ذكرت في سياق تهوين أمرهم على النبي ﷺ وعلى المؤمنين، أن هؤلاء الكفرة لا يعجزون الله، فإن تمتعوا في دار الدنيا فبأمره وإلى وقت قليل ومحدود، ثم لا مهرب لهم، بل نضطرهم إلى عذاب غليظ، فلا تشفق عليهم، هؤلاء لهوانهم على الله تبارك وتعالى لا يستحقون الشفقة، ولا تحزن على أنك جاهدت في أمر هدايتهم؛ لأن هذا الأمر هو بعين الله سبحانه وتعالى، وسوف ننتقم منهم في يوم القيامة ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلى عَذابٍ غَلِيظ﴾.

إذن هناك مشهدان وهناك صورتان:

الصورة الأولى: لمن يسلم وجهه لله وهو محسن، وهو متلبس بالعمل الصالح، هذا الذي أخذ بحبل وثيق لا يضل لا في الدنيا ولا في الآخرة، وعاقبته إلى الله فيعطيه الجزاء الأوفى.

الصورة الثانية: الذين صموا آذانهم عن الاستماع إلى الحق، فهؤلاء تمتعوا في دار الدنيا لأيام معدودة، ثم يساقون سوقاً إلى ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلى عَذابٍ غَلِيظ﴾.

جعلنا الله سبحانه وتعالى وإياكم من المسلمين وجوهنا إلى الله تبارك وتعالى، وجنبنا الكفر والعصيان.